

بيروت أسماء وشوارع.. الأشرفية بين الأمس واليوم

زهير دبس

مثلها مثل أي منطقة أخرى في بيروت، للأشرفية تاريخها، وذاكرتها وخصوصيتها التي تميزها عن غيرها من المناطق، وقد اكتسبت تسميتها نسبة إلى الأشرف بن منصور قلاوون، الذي حرر مدينة بيروت والسواحل الشامية من الصليبيين سنة ١٢٩١ للميلاد. للمنطقة اسم آخر هو "مزرعة الأشرفية"، حيث كانت بساتين التوت والأكيدنيا وحقول الزيتون قديماً تغطي أراضيها بشكل كثيف.

ملاذ الارستقراطيين

كانت الأشرفية بين نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ملاذاً لعدد كبير من الارستقراطيين، الذين وجدوا في موقعها القريب من أسواق بيروت والبعيد عن ضجيجها في الوقت نفسه، سكناً وطريقة عيش خاصة بهم، كأل سرسق وبسترس وغيرهم ممن كانت تربطهم علاقات تجارية واقتصادية بعدد من القناصل الأوروبية أيام الحكم العثماني، إذ بنت هذه العائلات عدداً من القصور الفخمة التي أعطت للمنطقة اسمها الشهير "حي سرسق"، ما زال عدد منها قائماً حتى يومنا هذا، كفيلا ليندا سرسق التي بنيت في العام ١٨٨٠، وقصر نقولا سرسق الذي بني في العام ١٩١٢، وآخر بناه نقولا بسترس في العام ١٩٢٩.

حافظت الاشرفية لاحقاً على صورتها كمنطقة برجوازية ذات طابع وثقافة غربيين، وقد ضمت عدداً من رجال الأعمال والتجار والسياسيين والمتقنين والصحافيين والفنانين والمؤرخين والأطباء والديپلوماسيين ورجال دولة حملت عدد من المناطق اسم عائلاتهم ك (طلعة الدباس، تصويينة التويني، المدور، ألفرد نقاش، عبد الوهاب الانكليزي، جرجي زيدان، شارل مالك، السيوفي، الجعيتاوي، ساسين) وغيرها.



صورة قديمة من الأشرفية نزلة ساسين باتجاه فرن الحايك

الصروح التربوية والطبية والدينية

تعود النهضة التربوية في الاشرافية إلى البعثة الفرنسية اليسوعية التي أنشأت في العام ١٨٧٥، جامعة القديس يوسف (السان جوزيف)، ثم توالى تأسيس المدارس واحدة تلو الأخرى لتكوّن سلسلة معروفة بمستواها التعليمي الرفيع، كالعازارية والحكمة وزهرة الإحسان والسان شارل، والبشارة الأرثوذكسية، والليسيه الكبرى، وغيرها .

في العام ١٩٢٣ تم تأسيس مستشفى (أوتيل ديو دو فرانس) الذي يعمل تحت إدارة جامعة القديس يوسف، ولم يكن هذا الأخير المرفق الصحي الوحيد في الأشرافية، بل كان هناك عدد من المستشفيات المتخصصة كالجعتياوي، ورزق ومار جاورجيوس للروم الأرثوذكس، وهو أقدم بناء استشفائي خاص في بيروت .

مؤخراً أنشأت الجمعية الخيرية لطائفة الروم الكاثوليك، مركز واحة الحياة OASIS DE VIE المخصص لرعاية المسنين ومرضى الألزهايمر من أصحاب الدخل المحدود.

الصروح الدينية في الأشرافية متعددة أيضاً، بعضها قديم والبعض الآخر حديث، من بينها "القديس يوسف"، "سيدة النجاة"، و"بشارة السيدة" و"القديسة كاترينا" و"مار نيقولاوس" و"بازيليك سيدة الأيقونة العجائبية للأباء العازاريين"، وجامع "علوم الشرق" في حي بيضون، والكنيسة الارثوذكسية سان ديمتري في مار متر ومقبرتها التاريخية الشهيرة.

نهضة عمرانية واقتصادية

حافظت الأشرافية على هدوء أحيائها وشوارعها ومطارحها رغم أن الازدهار التجاري لم يكن بعيداً عنها، إذ توفّر فيها، عدد من الشركات والمصارف والعيادات الطبية والمحال التجارية الفخمة والفنادق ومحال المجوهرات، والمطاعم والمقاهي. إضافة إلى متجري ABC والسبينس اللذين يعدان الأضخم في المنطقة.

وقد شكلت ميزاتها سبباً لأن تصبح في تسعينيات القرن العشرين وجهة أصحاب الرساميل الكبيرة الذين وجدوا فيها مجالاً مربحاً لتوظيف استثماراتهم، وكان ذلك سبباً في ازدهار سوقها العقاري، إذ شهدت المنطقة تحولاً عمرانياً كبيراً، وبدأت ترتفع فيها العمارات والأبنية الفخمة على شكل أبراج تضاهاي تلك الموجودة في المدن العالمية، مثل برج الأشرافية، يارد، متروبوليس، هيرميتاج، سايت ٢، مرتفعات الأشرافية، فال، جبيلي، أسمر، سماحة، حدائق تباريس، صعب، تلال بيروت، وسما بيروت الذي يعتبر أطول برج في لبنان، ورغم أن الأبنية المذكورة اتسمت بالفخامة، إلا أنها بنيت على أنقاض عدد من المباني التراثية والقصور التاريخية والحدائق التي يعود تاريخها إلى مئات السنين.

المسارح والمعارض

رغم الأبراج العالية التي حلت مكان الأبنية التراثية، ظلت الأشرافية تستمد ميزتها من عدد من القصور والفيلات التاريخية التي لم يشملها الهدم حتى اليوم، وقد تحول عدد منها إلى مقاه وحنات ومطاعم وملاهي، يقصدها اللبنانيون والسياح من مختلف المناطق والبلدان، لا سيما ما يقع منها في ساحة ساسين وعلى أطرافها في شوارع الجميزة ومونو وعبد الوهاب الانكليزي. حالياً، تشهد المنطقة ازدياداً في عدد الغاليريات التي تستقطب معارض متنوعة لأبرز الفنانين التشكيليين، إضافة إلى تأسيس عدد من معاهد تعليم الرسم

والموسيقى والفنون المسرحية وغيرها من الفعاليات الثقافية التي تجعل من الأشرفية مساحة لمتذوقي الفن الرفيع.



شاهد على زمن بيروت الجميل

وقد حدث في وقت سابق من العام ١٩٥٢، وإيماناً منه بدعم الفنانين اللبنانيين، قدم نقولا سرسق قصره الفخم إلى سكان بيروت، وقد أصبح منذ ذلك الحين مكاناً لـ"معرض الخريف" الذي انتقل إليه من الأونيسكو، وذلك نتيجة الحروب الأهلية والأحداث المتتالية التي شهدتها لبنان منذ العام ١٩٧٥، لكن القصر تعرّض لأضرار كبيرة، لحقت به، جرّاء انفجار المرفأ. وقد أعيد ترميمه وتجهيزه من جديد، ليبقى اليوم معرضاً لأبرز رواد الفن التشكيلي في لبنان، إضافة إلى نشاطات متنوعة ومتعددة تقيمها فعاليات ثقافية، وتشمل عروض فنية وموسيقية ومسرحية وسينمائية.

أشرفية حنين وذكريات

في الأشرفية طرق "قادومية"، تبدو أقرب إلى شرايين القلب، أدراج تربط المناطق والأحياء بعضها ببعض، تحكي حكايات أهلها في زمن ما قبل الاسفلت والشوارع العريضة، والأبنية الشاهقة التي تحجب الشمس، ما زالت موجودة حتى يومنا هذا، أدراج تحمل أيضاً أسماء قديسين وشخصيات تركوا بصمتهم فيها، كدرج "مسعد" و"مار باسيليوس" و"كرم الزيتون" و"البرباري" و"جعارة" الذي يربط مار مخايل والجعيتاوي بالأشرفية، ويبلغ عدد درجاته المئتين.

تقام على عدد من الأدراج المذكورة، معارض وأنشطة ثقافية وغنائية متنوعة، يشترك فيها عدد كبير من الحرفيين وفناني الغرافيتي والموسيقيين الذين يجعلون من هذه الأدراج مسرحاً في الهواء الطلق، ومن بينها "درج الفن" الذي يربط أسفل الجميزة بأعلى حي سرسق، ويقام عليه حفل "نحن والقمر جيران" يسهر فيه المحتفلون حتى الصباح.



صورة لجانب من منطقة الأشرفية سنة ١٨٩١ (المصدر جمعية تراث بيروت)

الأشرفية في روايات أبنائها

للأمكنة وجه آخر، نشاهده في لوحات الفنانين ونقرأ عنه في قصائد الشعراء وحكايات الكتاب، كما هي أشرفية الروائي الياس خوري الذي غادرنا قبل أشهر قليلة، خاصة لا بنايات فخمة فيها ولا أبراج عالية، ولا ملاهي أو مظاهر حدائية، بل حقول قمح وأشجار زيتون ومطارح احتضنت طفولته، هي الأشرفية التي سماها في روايته "الجبل الصغير"، هناك حيث كانت: "الشمس تطلع من الشرق، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق، نقطف السنابل حبة حبة لنلهو بها، كان الفقراء أو ما يشبه الفقراء يركضون أطفالاً بين حقول التلال ليسألوا عن أشياء الطبيعة، عن أشياءهم".